

القومية العربية والوحدة العربية

في فكر القومي العربي

أمير الحلو

لابد في البداية من اعطاء فكرة موجزة عن الظروف السياسية والاجتماعية التي ساهمت في تكوين حركة القوميين العرب وتطورها وانعكاس ذلك على طروحاتها الفكرية خصوصاً حول القومية العربية والوحدة العربية لم يكتب الكثير عن نشأة الحركة ولكن اهم من كتب عنها هو الشهيد الدكتور باسل الكبيسي في اطروحته (حركة القوميين العرب) واطروحة الدكتور وليد قزيها حول الحركة، وكذلك كتاب سهير سلطي التل (حركة القوميين العرب وانعطافاتها الفكرية). وكانت بداية التفكير في تكوين تنظيم جديد قد ابتدأت بعد نكبة ١٩٤٨ اذ تشكلت كتائب الفداء وجمعية العروة الوثقى ومن ابرز مؤسسيها د. جورج حبش وهاني الهندي وجهاد ضاحي واعتمدت العنف اسلوباً للعمل وبافكار سياسية متطرفة، وميزت نفسها عن غيرها من التنظيمات القومية بالتركيز على القضية الفلسطينية وأصدرت جريدة اسمتها (الثأر)، وخرجت في عام ١٩٥١ من نطاق العمل الطلابي في الجامعة الامريكية في بيروت الى صفوف الفلسطينيين في لبنان وخارجه وتحت واجهة (هيئة مقاومة الصلح مع اسرائيل) نشطت في ساحات عربية اخرى وطرحت برنامجاً سياسياً اعتبر ان المرحلة الراهنة تقوم على العمل من اجل تحرير فلسطين والتخلص من النفوذ الاستعماري وخلق دولة عربية واحدة، واعتبرت ان النضال الاقتصادي سيأتي دوره بعد ذلك من اجل تحقيق الاشتراكية العربية والديمقراطية. وفي منتصف الخمسينيات استطاعت الحركة ان توجد لها فروعاً تنظيمية ترتبط في المركز ببيروت في كل من سوريا والخليج العربي والاردن والعراق علاوة على التنظيم الفلسطيني الذي كان د. وديع حداد من ابرز مسؤوليه .

كان كتاب (مع القومية العربية) الذي كتبه الحكم دروزة في نيسان ١٩٥٦ هو المادة الفكرية الرئيسة للحركة الى جانب النشرات التثقيفية الخاصة التي تطرح في الاجتماعات التنظيمية. ومن هذا الكتاب نستطيع تسليط الاضواء على فكر القوميين العرب حول القومية

العربية والوحدة العربية، ويؤدي ان انوه قبل الدخول في هذا الموضوع ان تطورا وتغييرات جذرية قد حصلت بعد هذا الكتاب في فكر الحركة متأثراً بالحركة الناصرية بعد عام ١٩٥٨ وبادخال الفكر الاشتراكي في ادبياتها وقد قاد هذا التيار السيد محسن ابراهيم من خلال مقالاته في مجلة الحركة المركزية (الحرية) ومؤلفاته الاخرى يسانده في ذلك السيدان نايف حواتمة ومحمد كشلي .

لقد حددت طروحات القوميين العرب الفكرية الاولى طبيعة المرحلة النضالية التي تخوضها الامة العربية ورسمت ما اسمته بالاهداف المرحلية القريبة التي يجب التركيز عليها وهي:

١- القضاء على التجزئة البغيضة في الوطن العربي بالوحدة العربية الشاملة.

٢- القضاء على الاستعمار بشتى اشكاله والتحرر الشامل.

٣- القضاء على الكيان الصهيوني بالثأر.

أما الاهداف البعيدة فهي اقامة مجتمع قومي عربي تتحقق فيه العدالة الاجتماعية بشتى اشكالها، وتتحقق فيه انسانية الفرد العربي والامة العربية، وتنطلق منه الرسالة العربية بمداهم التطبيق الفعالي .

وأكدت بان تحقيق ذلك كله لا بد من ان يستند الى عقيدة واضحة تحدد اهداف النضال ومراحله واسلوبه، وان هذه العقيدة يجب ان تنبع من صميم الواقع القومي العربي .

القومية:

عرفت الحركة، القومية بانها (الشخصية الجماعية لاية امة، وهي الواقع التاريخي واللغوي والثقافي الذي يحوي نتائج ومعطيات التجارب الانسانية التي خاضتها الجماعة البشرية منذ نشأتها الى ان تبلورت شخصيتها تبلورا واضحا مميزا، قام على تفاعل عدة روابط مشتركة خاصة بهذه الامة، وان لكل قومية روابط خاصة وشخصية مميزة)، وتؤكد جميع الوقائع ان فكر القوميين العرب قد تأثر في بداياته بطروحات قسطنطين زريق وساطع الحصري حول القومية وكانت مؤلفاتهما تدرس كمادة فكرية في الاجتماعات التنظيمية. ويمكن اجاز النظر الى القومية

بالقول: ان لا انسانية حقبة بغير قومية حقبة ولا قومية حقبة بغير محتوى انساني عميق وفي ضوء الحقائق الاتية:

١ - ان القومية لم تنشأ في القرن الثامن عشر او التاسع عشر او العشرين كما يقول بعض المفكرين، بل تكونت أسس الوجود القومي لكل جماعة قبل ذلك بكثير، وما حدث في القرن الثامن عشر وما بعده هو تبلور الشعور القومي وليس نشوء القومية.

٢- ان القومية ليست بدعة اوجدها الاستعمار الحديث كما تقول بعض الحركات الدينية، فهي اقدم بكثير من الاستعمار الحديث، والاستعمار قد يوجد فكرة أو تيار، ولكنه لا يستطيع ان يوجد واقعا تاريخيا اجتماعياً، بالاضافة الى ان لاشيء يخيف الاستعمار كما يخيفه انشار الوعي القومي.

٣- ان القومية ليست وضعا او عاطفة أو تيارا اوجدته الطبقات البرجوازية لاستغلال الشعب كما تقول الماركسية، بل هي واقع تاريخي اجتماعي تكون قبل اختراع الالة وحدوث الانقلاب الصناعي في اوربا وظهور ما يسمى بالطبقات البرجوازية، بالاضافة الى ان الظلم الاجتماعي وما ينشأ عنه من استغلال للشعب، لا يكمن في المجتمعات القومية، بل يكمن في الانظمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي تطبقها هذه المجتمعات.

٤- ان القومية ليست نزعة ضيقة انعزالية، فالقوميات الواعية هي وحدات اجتماعية متفاعلة، تأخذ وتعطي وتزيد الحضارات الانسانية غنى وخصبا وشمولا، والتجربة الانسانية عمقا واصالة .

القومية العربية:

عرف القوميون العرب، القومية العربية بانها (الشخصية الجماعية المتميزة للامة العربية التي عاشت وتعيش، وتتفاعل في هذا الوطن العربي على مر التاريخ، مما اوجد لديها روابط قومية خاصة بها تميزها عن غيرها من قوميات العالم). أما الروابط التي تقوم عليها القومية العربية فهي لا تختلف عما طرحه حزب البعث العربي الاشتراكي والكتاب القوميون الآخرون وهي:

١- اللغة العربية التي هي مظهر اساسي من مظاهر القومية العربية الواحدة، وركن هام في تثبيت هذه الوحدة القومية العربية وتعميقها في شخصيتنا وقد بقيت اللغة الوحيدة التي يتخاطب ويتفاهم بها العرب، والوسيلة الوحيدة التي يعبرون بها عن آرائهم وافكارهم واحاسيسهم وانفعالاتهم وتجاربهم، منذ ان تكونت القومية العربية واقعا اجتماعيا تاريخيا للعرب في اعماق العصور حتى يومنا هذا. أما اللهجات المحلية التي نجدها في اجزاء الوطن العربي فلا تقلل ابدا من اهمية رابطة وحدة اللغة، لان العربي يستطيع مهما كانت لهجته ان يفهم لهجة عربي آخر، وان يتعودها في ايام معدودة، بل ويكون قادرا على استعمالها نفسها بعد فترة، كما ان هذه اللهجات المحلية لا تحدد أبداً اقطارا منفصلة، فقد تختلف في القطر الواحد، وتشبه احيانا لهجة قطر آخر قد يبعد مئات الاميال، أما اللغة العربية الفصحى فهي واحدة في اجزاء الوطن العربي وتحدد بنفس القواعد والشروط من حيث اللفظ والاعراب والتشكيل. واللغة العربية تمثل مجرى كبيرا للتفكير انصبت به عادات الامة العربية وتقاليدها ومثلها وصفاتها ومقاييسها وتراثها الكبير، مما يولد اتجاهها ثقافيا واحدا وانسجاما متفاهما في التفكير والمشاعر.

٢- وحدة التاريخ، تميز التاريخ العربي الذي مر على الامة العربية بثلاث مميزات هامة جعلته عاملا رئيسا في ايجاد القومية العربية الواحدة والشخصية القومية العربية المتميزة وهذه الميزات هي:

أ - ان التاريخ العربي هو وحدة تاريخية سياسية مترابطة.

ب. ان التاريخ العربي هو وحدة اجتماعية.

ج. ان التاريخ العربي هو سلسلة متعددة الحلقات هيأت كل حلقة لمجيء الحلقات التالية. فالتاريخ العربي كان وحدة تاريخية شاملة.

٣- وحدة الارض: ان الطبيعة الجغرافية للوطن العربي كانت عاملا هاما في تكوين شخصية القومية العربية، والوطن العربي هو وحدة جغرافية، مما جعل تأثير البيئة ينعكس في الامة العربية كوحدة ايضا، وبطبعها بطابع واحد. ان الوحدة الطبيعية الجغرافية البارزة في الوطن العربي قد مهدت لقيام الوحدة اللغوية والتاريخية والثقافية، كما ساعدت على قيام الوحدات السياسية التي رأيناها في التاريخ العربي، ووفرت الجو الضروري لاحتكاك العرب وتفاعلهم منذ عهد ما قبل الميلاد والاسلام حتى يومنا هذا، وكانت عاملا ضروريا لاجاد القومية العربية الواحدة .

٤- وحدة العادات والتقاليد: تتوفر في القومية العربية وحدات العادات والتقاليد والثقافة بوجه عام، وهي مجمل القواعد التي وضعتها الامة العربية في سيرها عبر التاريخ لتنظيم سلوك افرادها كما تعارفت عليه من قيم، ولتنظيم علاقة الافراد ببعضهم البعض وبغيرهم بما تعارفت عليه من مقاييس، ولتنظيم علاقة الافراد بالكون عامة مما تعارفت عليه من تفسيرات ونظرات في الحياة، فهي تنعكس بكلمة في وحدة التشريع العربي مكتوبا كان أم متداولاً .

ولكن فكر الحركة في هذا المجال يدعو الى جرد جديد للعادات والتقاليد والثقافة العربية، لان بعضها يحتاج الى بعث واحياء، وبعضها تراكم عليه فساد عصور الانحطاط والاستعمار التركي والغربي الطويل وشوّهه تشويها كبيرا، ويجب ان نجلو عنه هذه الترسبات لنصل الى جوهره الاصيل، وبعضها يحتاج الى تطوير يتلاءم والتقدم الحضاري ويجاري روح العصر الحديث .

٥- وحدة المصالح: لا شك ان مصلحة العيش المشترك في أية جماعة، العيش المشترك الذي يمهد لقيام مجتمع قومي واحد، ودولة قومية واحدة تنظم تنظيماً متكاملًا في مختلف مرافق حياة الجماعة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقومية عامة لما فيه خير المجموع القومي، لا شك ان هذه المصلحة الواحدة عامل هام في تثبيت الوحدة القومية. والعرب تجمعهم مصلحة واحدة في الحياة القومية الواحدة، فلهم مصلحة سياسية في اقامة دولة عربية واحدة، ولهم مصلحة اقتصادية في اقامة دولة قومية عربية تستثمر امكاناتها الاقتصادية. والعرب تجمعهم مصلحة اجتماعية واحدة تدوب فيها النزعات المحلية الضيقة والعصبية الطائفية، مجتمع واحد تتوحد فيه النظم التربوية والثقافية .

٦- وحدة الارادة: ان لعنصر الارادة اثراً كبيراً في الترابط القومي وايجاد الوحدة القومية ارادة العيش المشترك و ارادة الافراد ان يحيوا حياة قومية واحدة في مجتمع قومي واحد وفي ظل دولة قومية واحدة، وان توفر عنصر الارادة الواحدة عامل هام جدا في تماسك الوحدة القومية لاية أمة. وللأمة العربية اهداف قومية واضحة تهدف الى القضاء على التجزئة والاستعمار والكيان الصهيوني وارساء اسس المجتمع القومي العربي الواحد والمتحرر العادل.

هذه المفاهيم التي طرحها القوميون العرب للقومية العربية في المراحل الاولى لتنظيمهم تأثرت المرحلة اللاحقة بالحركة الناصرية فكريا وسياسيا وتنظيميا وقد قاد السيد محسن ابراهيم في بداية الستينات تيارا اعتبر القوميين العرب رافدا من روافد الناصرية وفي هذا السياق ينتقد المفاهيم القومية القديمة ويصفها بالمثالية، ويقترح الفكر الاشتراكي الديمقراطي وسيلة لنقل

مفاهيم القومية من مرحلة الاحساس الى مرحلة الفكر العلمي المرتكز على منهجيات التحليل العلمي للواقع، فيضفي بعدا اقتصاديا اجتماعيا على مفاهيم القومية، وينقلها من المثالية الى الواقعية، ويمكن شرح هذا التحول اكثر عند الحديث عن مفهوم الوحدة الاشتراكية في المرحلة الناصرية وما بعدها من تاريخ القوميون العرب .

الوحدة العربية :

وصف القوميون العرب الوحدة بانها اساس مهم من أسس وجودنا القومي، ولن يتحقق هذا الوجود ما دامت التجزئة قائمة، فالوجود العربي الواحد يجب ان يتجسد في كيان واحد متفاعل تعبر فيه القومية العربية عن نفسها تعبيرا ينبع من الموضع الطبيعي لحقيقتها واصالتها. وقد ادانوا الدعوات الاقليمية المستندة الى اصول تاريخية كالقومية اللبنانية المستندة الى الاصل الفينيقي، أو القومية السورية التي تبناها الحزب القومي السوري الاجتماعي، أو الدعوات الفرعونية وغيرها، واكدوا انها سائرة الى الزوال حين يشتد الوعي القومي العربي وتزداد معرفة الانسان العربي لحقيقتة. وفي سبيل ربط شعارات واهداف الحركة بعضها ببعض، اعطى القوميون الاهمية الاولى للوحدة العربية وذكروا بان التجزئة هي من فعل الاستعمار وهي السند الاول لدوام سيطرته وللنفثات الرجعية المصلحية المرتبطة بالتجزئة، لذلك فان الوحدة هي السند الاول للانتصار في معركة التحرر العربي، واذا كانت التجزئة هي العامل الاول في قيام (اسرائيل) ودوام بقائها، فان الوحدة هي السند الاول للانتصار في معركة الثأر واسترداد الارض المغتصبة، ومن هنا اصبح النضال في سبيل الوحدة لا ينفصل مطلقا عن النضال ضد الاستعمار والصهيونية، ولكن الوحدة العربية لا تأخذ معناها كاملا من كونها معركة اساسية شاملة تندرج في اطارها مختلف معاركنا السياسية، فكما ان الوحدة هي اساس الثورة العربية السياسية الشاملة، كذلك هي اساس الثورة الاجتماعية الاقتصادية والمجتمع العربي الاشتراكي الديمقراطي، ولا يمكن ان تتحقق هذه الثورة الاجتماعية الاقتصادية، وان تقوم نهضة عربية في ظل التجزئة السياسية والاقتصادية والثقافية . ان هذا الطرح الوجدوي الذي رافق بدايات التأسيس والسنوات اللاحقة، تأثر بشكل واضح خلال المرحلة الناصرية وخصوصا بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة ثم صدور الميثاق القومي الذي طرحه القائد الراحل جمال عبد الناصر، فقد ظهر مفهوم الدولة النواة التي هي مركز العمل الوجدوي، وهي تجربة قابلة للانتقال، وان نقل هذه التجربة مسؤولية الطبيعة الثورية التي لا بد لها من ان تتفاعل مع الدولة النواة والتي يكون من مسؤوليتها تصدير الثورة .

حركة القوميون العرب

وانطلاقاً من الموقف السياسي تجاه الوحدة المصرية السورية اعتبر القوميون العرب ان(الوحدة النواة)هي التي تمثل مرتكز الوحدة الكبرى بحيث تخوض وتقود الى جانب معركة تحرير الوطن العربي وتوحيده،معركة تثبيت الشخصية الوطنية المستقلة،وتدعيم مبدأ الحياد الايجابي دولياً وهي الرد المناسب على الاتجاهات الشعبوية والاقليمية.وهكذا يلاحظ بان التركيز الواسع،على مفهوم(الوحدة النواة) قد حدد الاتجاه الواسع نحو الوحدة الذي شهدته بدايات التنظيم والذي كان يؤيد المشاريع الوحدوية كافة بدون البحث عن اهدافها السياسية والاقتصادية،لذلك جرى رفض مشروع عبد الكريم قاسم في ضم الكويت الى العراق،لان مثل هذه المشاريع تستهدف بالاساس ايجاد محاور وتكتلات ضد دولة الوحدة النواة الجمهورية العربية المتحدة.

وهكذا كان مفهوم الوحدة في هذه المرحلة يقوم على اساس الوحدة الاندماجية الكاملة مع الدولة النواة للوحدة العربية الشاملة.

وقد ولد الانفصال في ٢٨ ايلول ١٩٦١ رد فعل واسعا في فكر القوميين العرب وان لم يكن بشكل واضح على علاقاتهم السياسية والتنظيمية مع قيادة عبد الناصر،فمع بقاء الايمان بان الجمهورية العربية المتحدة تمثل نواة الوحدة ورفض انفصال سورية والنضال من اجل اعادتها فان مجلة(الحرية) وهي المجلة المركزية نشرت سلسلة مقالات بقلم السيد محسن ابراهيم ثم اصدرت في كتاب(في الديمقراطية والثورة والتنظيم الشعبي) بعنوان منشورات حركة القوميين العرب،وقد تركزت المقالات على مناقشة تجربة الجمهورية العربية المتحدة ايام الوحدة وتجربتها بعد الانفصال،واعتبرت ان تجربتها كانت حقل الاختبار الذي خرجت منها الحركة الثورية بزد فكري جديد،وقد وردت انتقادات ومستلزمات جديدة تحتاجها دولة الوحدة ومنها:

- ١- انها يجب ان تؤسس على قاعدة صلبة كبيرة هي قاعدة الشعب.
- ٢- ان حماية الثورة والقرارات الاشتراكية لا تتم الا بالوعي والتنظيم.الوعي التقدمي الاشتراكي والتنظيم الشعبي العقائدي والتكتل النقابي والمهني.
- ٣- ان مهادنة الرجعية ليست الا عملية انتحارية تسلم فيه الحركة العربية الثورية زمام المعركة الى الرجعية العربية واعداء التقدم العربي .
- ٤- ان العلاقة بين اطراف المعسكر القومي يجب ان تكون علاقة لقاء وتفاعل وتعاون في الكفاح المشترك.

٥- ان اللقاء بين القوى القومية يجب ان يكون حول تحليل واحد للمعركة العربية وحول استراتيجية موحدة نستلهم منها جميعا كل خطانا .ونخلص في النهاية الى ان قيام دولة الوحدة جعل الثورة العربية تدخل مرحلة جديدة هي مرحلة البناء الاشتراكي الديمقراطي ،واصبح عليها ان تتصدى لعملية التغيير الثوري الكبير في المجتمع ،ولكن الفكر العربي الثوري كله لم يكن في وضع يمكنه من قيادة هذه العملية ورسم الطريق امامها .وعلى الرغم من ان السيد محسن ابراهيم استمر في منهجه الذي يعتبر القوميين العرب رافدا ناصريا(وذلك ما اكده في المؤتمر القومي عام ١٩٦٤) الا ان طروحاته اليسارية بعد ذلك تناولت بالنقد كافة الشعارات التي رفعت حول موضوع الوحدة وقال انها سببت الكثير من السياسات الخاطئة، ولم يكن الجناح الاخر في التنظيم الذي قاده د.جورج حبش باقل يسارية في طروحاته حول الوحدة اذ اعتبر ان الوحدة هي التعبير عن عواطف ومشاعر قومية وهي تعبير عن مصلحة الطبقة العاملة وسائر الجماهير الكادحة في الحياة الكريمة .

وهكذا تحولت الوحدة في هذه المرحلة من الوحدة المطلقة الكلية بابعادها المثالية الى وحدة ذات اساس موضوعي مادي .

ذلك باختصار هو مفهوم القوميين العرب للوحدة العربية فبعضهم يعتبر التغيير الجذري في هذا المفهوم من مرحلة التأسيس الى ما هو عليه بعد ذلك تطورا ايدولوجيا لا بد منه في ضوء التجربة والاحتكاك العلمي بالفكر الماركسي والعلاقات المتنامية مع الاحزاب والتنظيمات الشيوعية .وبعضهم يعتبر ذلك نتيجة حتمية لضعف المنطلقات الفكرية التي قاموا عليها، ومهما يكن ،فباعترادي ان حركة القوميين العرب بدأت تنظيما وضع القضية الفلسطينية في مقدمة اهتماماته ونضاله، وانتهت (فلسطينيا) بقيام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، اللتين ماتزالان تقاد من قبل القيادات المعروفة لحركة القوميين العرب .

.....